أعظمها المدرسة المستنصرية على شط دجلة من الجانب الشرقي مما يلي دار الخلافة وبنى غيرها من القناطر والخانات والربط ودور الضيافة وكان يقول إني أخاف ألا يثيبني اللّه على ما أهبه وأعطيه لأن اللّه تعالى يقول ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ (١) وأنا واللّه لا فرق عندي بين التراب والذهب.

ولما ولي سلك في الخير والإحسان إلى الناس سيرة أبيه وأمر فنودي ببغداد بإفاضة العدل، وأن من كانت له حاجة أو مظلمة يطالع بها تقضى حاجته وتكشف مظلمته.

وفي عهده توفي ملك المغول الكبير جنكيز خان (سنة ٦٢٤) وحل محله في بلاد خراسان وما وراءها ابنه تولي خان فوسع مملكته إلى الغرب وأرسل فرقة إلى بلاد أذربيجان فملكتها وأجلت عنها جلال الدين مكبرتي وخافهم أهل أذربيجان خوفاً شديداً ولم يكن أمامهم من يرد غائلتهم بعد جلال الدين الذي لم يجد له نصيراً لأنه وتر الملوك المجاورين له طراً.

قال ابن الأثير تعليقاً على هذه الحال (فما نرى من ملوك الإسلام من له رغبة في الجهاد ولا نصرة الدين بل كل منهم مقبل على لهوه ولعبه وظلم رعيته وهذا أخوف عندي من العدو) قال اللّه تعالى ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾ (٢).

وكان مقتل جلال الدين في منتصف شوال (سنة ٦٢٨) قتل شريداً طريداً لم يفده هذا الملك العظيم الذي ورثه عن أبيه، وبهلاكه تم للمغول ملك جميع البلاد الفارسية إلى حدود العراق ولم يتهيأ للملوك أن يتفقوا ضد هذا العدو الشديد المراس بل كانوا فيما بينهم مختلفين يغير بعضهم على بعض عن عدوهم لاهون غافلون. صار العراق ينتظر النكبة منهم من آن لآن وخليفة بغداد مستسلم للحوادث مدل بمركزه الديني.

٣٧ ـ المستعصم

هو أبو أحمد عبد اللّه المستعصم باللّه بن المستنصر بن الظاهر بن الناصر بن المستضيء بن المستنجد بن المقتفي بن المستظهر بن المقتدي بن محمد الذخيره بن القائم بن القادر بن إسحاق بن المقتدر بن المعتضد بن طلحة بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد بن المهتدي بن المنصور ففي آبائه سبعة عشر خليفة.

بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه المستنصر باللّه في عاشر جمادى الآخر (سنة ٦٤٠) (٦ ديسمبر

(١) سورة: آل عمران، الآية: ٩٢.
(٢) سورة: الأنفال، الآية: ٢٥.

سنة ١٢٤٢) ولم يزل خليفة إلى أن قتل بين يدي هولاكوخان في (٢٠ محرم سنة ٦٥٦) (٢٧ يناير سنة ١٢٥٨) وبقتله انتهت الخلافة العباسية.

قال ابن طباطبا كان المعتصم رجلاً خيراً متديناً لين الجانب سهل العريكة عفيف اللسان والفرج حمل كتاب اللّه تعالى وكتب خطاً مليحاً وكان سهل الأخلاق وكان خفيف الوطأة إلا أنه كان مستضعف الرأي ضعيف البطش قليل الخبرة بأمور المملكة مطموعاً فيه غير مهيب في النفوس ولا مطلع على حقائق الأمور وكان زمانه ينقضي أكثر بسماع الأغاني والتفرج على المساخرة وفي بعض الأوقات يجلس بخزانة الكتب جلوساً ليس فيه كبير فائدة وكان أصحابه مستولين عليه وكلهم جهال من أرذال العوام إلا وزيره مؤيد الدين محمد بن العلقمي فإنه كان من أعيان الناس وعقلاء الرجال وكان مكفوف اليد مردود القول يترقب العزل والقبض صباح مساء.

حال التتر:

قلنا فيما تقدم إن جنكيز خان لما حانت منيته قسم ممالكه إلى أقسام أربعة بين أولاده ومنهم تولي خان الذي جعل له خراسان وما يؤهل أخذه من ديار العراقين إلى منتهى حوافر خيولهم وقد استمر تولي في مملكته الجديدة يتوسع في الفتح ويمد بلاده إلى الغرب ويستنزل ملوك فارس عن تخوتها حتى توفي (سنة ٦٥٤) في عهد المعتصم باللّه وكانت حدود بلاده تنتهي عند بلاد العراق فخلفه في الملك ابنه هولاكوخان حفيد جنكيز خان فأهمه التوسع في الفتح وأخذ بغداد وكان بها من يحب ذلك.

قال المؤرخون إن أهل السنة والشيعة الذين يتألف منهم جمهور البغداديين كانوا في نزاع مستمر وقد أدى هذا النزاع بينهم إلى حروب وشدائد رائدها الجهل والغفلة عن المصالح وكان وزير المستعصم من رجال الشيعة فكان يسوؤه ما يلقاه أهل مذهبه من اضطهاد أهل السنة الذين هم الجمهور الأكبر وكان يزيد في مساءته أن أهل البيت العباسي كانوا يساعدون أهل السنة لأنهم عماد بيتهم والشيعة يريدون خروج الأمر منهم وقد حصل في أواخر عهد المستعصم أن أغار أهل السنة على الكرخ وهو محلة الشيعة فأهانوا أهله وأسرفوا في قتلهم ونهب دورهم وكان ذلك بأمر أبي بكر أحد أولاد الخليفة المستعصم فيقال إن الوزير كاتب هولاكو يحرضه على قصد بغداد ويطمعه فيها وجل رغبته أن تسقط الخلافة العباسية ولا يهمه بعد سقوط عدوه من تولى الملك بعده فكانت تلك المكاتبة مما ساعد هولاكو على تنفيذ رغبته وأكثر المؤرخين يتهمون ابن العلقمي بهذه التهمة الشنيعة حتى نقل ابن الوردي في تاريخه ما يؤكد هذه التهمة وهو رسالة أرسلها ابن العلقمي إلى وزير إربل منها أنه قد نهب الكرخ المكرم وقد ديس البساط النبوي المعظم وقد نهب العترة العلوية واستؤسرت العصابة الهاشمية وقد حسن التمثل بقول شخص من غزية:

أمـــور تضحـــك السفهـــاء منهـــا ويبكـــي مـــن عـــواقبهـــا اللبيـــب

وقد عزموا على نهب الحلة والنيل بل سولت لهم أنفسهم أمراً فصبر جميل:

أرى تحـت الـرمـاد وميـض نـار ويـوشـك أن يكـون لهـا ضـرام
فـإن لـم تطفهـا عقـلاء قـوم يكـون وقـودهـا جثـث وهـام
فقلـت مـن التعجـب ليـت شعـري أأيقـــاظ أميـــة أم نيـــام

ومنها:

وزيـر رضـي مـن حكمـه وانتقـامـه بطـي رقـاع حشـوهـا النظـم والنثـر
كمـا تـسجـع الـورقـاء وهـي حمـامـة وليـس لهـا نهـي يطـاع ولا أمـر

فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون.

ووديعـة مـن أسـر آل محمـد أودعتهـا إن كنـت مـن أمنـائهـا
فـإذا رأيـت الكـوكبيـن تقـارنـا في الجدي عند صباحها ومسائها
فهنـاك يـؤخـذ ثـار آل محمـد وطـلابهـا بـالتـرك مـن أعـدائهـا

وكن لما أقول بالمرصاد وتأول أول النجم واحرص والله أعلم.

وابن طباطبا العلوي يبعد هذه التهمة عن ابن العلقمي قال في تاريخه وقد نسبه الناس إلى أنه خامر وليس ذلك بصحيح ومن أقوى الأدلة على عدم مخامرته سلامته في هذه الدولة فإن السلطان هولاكو لما فتح بغداد وقتل الخليفة سلم البلد إلى الوزير وأحسن إليه وحكمه فلو كان قد خامر على الخليفة لما وقع الوثوق إليه اهـ والله أعلم بمقدار هذا البرهان في الإنتاج.

سارت جيوش هولاكو الجرارة قاصدة بغداد وفي منتصف محرم (سنة ٦٥٦) نزل بنفسه على باب بغداد وأعد عدة الحصار ولم يكن عند الخليفة ما يدفع به ذلك السيل الجارف واكتفى باقفال الأبواب فجد المغول في القتال حتى ملكوا الأسوار بعد حصار لم يزد على عشرة أيام وبملك الأسوار تم لهم ملك البلد.

ولما رأى الخليفة ذلك استأذن أن يخرج إلى هولاكو فأمر هولاكو أن ينزل باب كلواذى أحد أبواب بغداد وشرعت جنوده في نهب تلك المدينة التي كانت حاضرة الإسلام كله ثم تقدم بإحضار الخليفة فأحضره ومثل بين يديه وقدم لهولاكو جواهر نفيسة ولآلىء ودرراً معبأة في أطباق ففرق هولاكو ذلك على أمرائه.

وفي رابع عشر صفر (سنة ٦٥٦) رحل عن بغداد واستصحب معه الخليفة وفي أول مرحلة قتله هو وابنه الأوسط مع ستة نفر من الخصيان وقتل ابنه الكبير ومعه جماعة من الخواص على

باب كلواذى وبهذا القتل كسفت شمس الخلافة العباسية من بغداد بعد أن مكثت مشرقة (٥٢٤ سنة) واشتفت قلوب العلويين من بني عمهم بما حل بهم من هذا الخراب والدمار.

أما بغداد دار الخلافة وعاصمة الملك فقد جرى عليها ما جرى على سواها من أمهات المدن الإسلامية فقد قتل معظم أهلها وقيل منهم من نجا وقد استبقى المغولي جماعة من الشيعة والنصارى وسكان بغداد بعد أن أفنى أكثر أهلها قوم جاؤوا مع هولاكو ومن أقطار شتى وصارت حاضرة دولة لا تدين بدين بعد أن كانت عاصمة المسلمين.

obeikandl.com

حال الدولة الإسلامية

عند سقوط الدولة العباسية

١ ـ كانت بغرناطة من البلاد الأندلسية دولة بني نصر والقائم بالأمر منها مؤسسها محمد الغالب باللّه بن نصر (٦٢٩ ـ ٦٧١).

٢ ـ بشمال إفريقية دولة الموحدين والقائم بالأمر منهم أبو حفص عمر المرتضي ابن إسحاق بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (٦٤٦ ـ ٦٦٥).

٣ ـ وبالجزائر الدولة الزيانية والقائم بالأمر منهم بغمواسن بن زيان مؤسس الدولة (٦٣٣ ـ ٦٨١).

٤ ـ وبتونس الدولة الحفصية والقائم بالأمر منهم أبو عبد اللّه محمد المستنصر باللّه أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص (٦٤٧ ـ ٦٧٥).

٥ ـ وبمراكش الدولة المرينية والقائم بالأمر منهم أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق (٦٥٦ ـ ٦٧٥).

٦ ـ وبمصر دولة المماليك البحرية والقائم بالأمر منهم المنصور نور الدين علي ابن المعز عز الدين أيبك (٦٥٥ ـ ٦٥٨).

٧ ـ وباليمن الدولة الرسولية والقائم بالأمر منهم المظفر بن يوسف بن المنصور عمر بن علي بن رسول (٦٤٧ ـ ٦٧٤).

٨ ـ وبصنعاء من أئمة الزيدية المتوكل شمس الدين أحمد (٦٥٦ ـ ٦٨٠).

٩ ـ وبالروم من السلاجقة ركن الدين قليج أرسلان الرابع (٦٥٥ ـ ٦٦٦).

١٠ ـ وبماردين من الدولة الأرتقية نجم الدين غازي السعيد (٦٣٧ ـ ٦٥٨).

١١ ـ وبفارس من الأتابكية السلغرية أبو بكر بن سعد بن زنكي بن مودود (٦٣٣ ـ ٦٥٨).

١٢ ـ وبلورستان من الأتابكية الهزارسبية دكلا بن هزارسب (٦٥٠ ـ ٦٥٧).

١٣ ـ وبكرمان من دولة قتلغ خان قتلغ خاتون (٦٥٥ ـ ٦٨١).

obeikandl.com

إجمال القول في الدولة العباسية:

تولى العباسيون الخلافة الإسلامية (سنة ١٣٢) حيث بويع لأولهم أبي العباس عبد اللّه السفاح بالكوفة واستمرت خلافتهم إلى (سنة ٦٥٦) حيث سقط عبد اللّه المعتصم قتيلاً بين يدي هولاكو خان المغولي من أعقاب جنكيز خان موحد التتر الخارج بهم إلى بلاد الإسلام. جاءت الرايات السود من المشرق فأقعدت بني العباس على عرش بني أمية وجاءت رايات التتر من المشرق فثلت عرشهم من بغداد زهرة المشرق وجنة الدنيا فمن الشرق أشرق كوكب سعدهم ومن الشرق ظهر نجم نحسهم استمرت خلافتهم (٥٢٤ سنة) استخلف فيها منهم (٣٧) خليفة فمتوسط ملك الخليفة منهم نحو(١٤ سنة) وأكبر مدة قام فيها خليفة عباسي (٤٦ سنة) وأقلها سنة فما دونها.

مكثت الدولة العباسية (١٠٠ سنة) لخلفائها الكلمة العليا والسيادة التامة على جميع العالم الإسلامي (ما عدا بلاد الأندلس) يقولون فيسمع لهم ويأمرون فيأتمر الناس ولا يجسر أحد على مخالفتهم والوقوف في وجه جنودهم إلا منافسيهم في القرب من رسول اللّه ﷺ وهم بنو عمهم من آل أبي طالب وبعض الخوارج الذين كانت تخبو نارهم حيناً وتلمع ثم تجيء القوة العباسية الهائلة على ذلك بسرعة.

وقام في هذا العصر الباهر من العباسيين ثمانية خلفاء وهم السفاح والمنصور والمهدي والرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق متوسط خلافة الواحد منهم اثنتا عشرة سنة ونصف وينتهي هذا الدور بوفاة الواثق (سنة ٢٢٢).

ثم جاء بعد ذلك قرن آخر من (٢٢٢ إلى ٣٣٤) أخذت الدولة فيه في النزول شيئاً فشيئاً وضعف تلك المكانة التي كانت لهم في نفس الأمم الإسلامية واجترأ الأمراء بالأطراف على الاستقلال وصار أمر العباسيين يضمحل حتى لم يبق بيدهم إلا العراق وفارس والأهواز وهذه مملوءة بالاضطراب والفتن وآل الأمر إلى أن يتولى بغداد مملوك تركي أو ديلمي يطلق عليه أمير الأمراء له النفوذ التام والسلطان المطلق والولاية العامة وليس للخلافة من الأمر شيء.

قام في هذا العصر اثنا عشر خليفة. وهم المتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد والمعتضد والمكتفي والمقتدر والقاهر والمتقي والمستكفي الذي ملك بنو بويه في آخر عهده ومتوسط خلافة الواحد منهم ثماني سنوات ونصف ولم يمت منهم موتاً هادئاً إلا أربعة والباقون خرجوا من الخلافة بين قتيل ومخلوع. وكان استيلاء بني بويه على بغداد (سنة ٣٣٤).

جاء بعد ذلك دور ثالث من (٣٣٤ إلى ٤٤٧) ليس للخليفة فيه إلا اسم الخلافة والسلطان

الفعلي لأمة فارسية هي الأمة الديلمية التي يمثلها السلطان من بني بويه يقيم ببغداد فصار الخليفة كأنه موظف لهم يتناول منهم ما يقوم بأوده وليس له تصرف ولا نفوذ يؤمر فيأتمر ويفعل ما يراد منه لا ما يريد وليس له على أنفس المالكين شيء من السلطان الديني لمباينتهم له في العقيدة فقد كانوا شيعة غلاة يدينون بفضل علي وآل بيته على من عداهم وإنما رضوا ببقاء الخليفة العباسي ليكون أمره عليهم هيناً يبقونه متى رأوا في بقائه خيراً لهم ويعزلونه أو يقتلونه متى رأوا في ذلك مصلحتهم.

وقد قام في هذا الدور المستكفي والمطيع والطائع والقادر والقائم ومتوسط مدة الخليفة منهم (٢٢ سنة ونصف) والقائم هو حلقة الاتصال بين هذا الدور والذي يليه والثلاثة الأولون من خلفاء هذا الدور خلعهم بنو بويه.

جاء بعد ذلك دور آخر من (سنة ٤٤٧) إلى (سنة ٥٩٠) انتقل السلطان الفعلي فيه إلى أمة تركية يمثلها سلطان من آل سلجوق يقيم ببلاد الجبل لا في بغداد وكان بنو العباس مع هذه الدولة أحسن حالاً منهم مع بني بويه فإن هؤلاء كانوا يحترمون الخلفاء تديناً وكانوا يبدون لهم من مظاهر التعظيم والإجلال ما يقضي به منصبهم الديني.

وقد ولي في هذا الدور المقتدي والمستظهر والمسترشد والراشد والمقتفي والمستنجد والمستضيء ومتوسط خلافة الواحد منهم نحو عشرين سنة ونصف ولم يكن الخلفاء في هذه المدة على حال واحد فإنهم من عهد المسترشد شرعوا يستردون شيئاً من نفوذهم الفعلي في بغداد والعراق والذي ساعدهم على ذلك بعد آل سلجوق عنهم وتفرقهم ووقوع الحرب بينهم وقد تم استبدادهم بأمر العراق في عهد المقتفي وانقضت دولة السلاجقة (سنة ٤٩٠) على يد خوارزمشاه ونفوذهم في العراق قد اضمحل تماماً.

مكث العباسيون بعد سقوط الدولة السلجوقية (٦٦ سنة) لم يكونوا فيها تحت سلطان أحد بل كانوا مستقلين بملك العراق إلى أن قام المغول والتتار بحركتهم التي ابتدأت بأقصى تركستان وعصف ريحهم على البلاد الإسلامية فأخذ أنفاس الدولة العباسية وأزالها من بغداد على يد هولاكو حفيد جنكيز خان (سنة ٦٥٦).

فللدولة العباسية أدوار:

(١٠٠ سنة) عصر القوة والعمل من ..... ١٣٢ ـ ٢٣٢

(١٠٢ سنة) عصر استبداد المماليك الأتراك من ..... ٢٣٢ ـ ٣٣٤

(١١٣ سنة) عصر استبداد الملوك من آل بويه من ..... ٣٣٤ ـ ٤٤٧

(٨٣ سنة) عصر استبداد الملوك من آل سلجوق من ..... ٤٤٧ ـ ٥٣٠

(١٢٦ سنة) عصر استعادة العباسيين شيئاً من نفوذهم السياسي
مع تغلب القواد من ..... ٥٣٠ ـ ٦٥٦

ونريد أن نوضح هنا الأسباب الرئيسية التي أدت بهذه القوة الهائلة إلى الضعف ثم التلاشي.

١ ـ ضعف عصبية الدولة

اعتمدت الدعوة الإسلامية من أول نشأتها على العصبية فهي التي كانت عماداً لتلك الدعوة وقد كان مما اهتم به صاحب الدعوة ﷺ القضاء على العصبيات الجزئية العربية وإحياء العصبية الكلية فقد ورد عنه كثير من الأحاديث التي تنهى عن دعوة الجاهلية وهي قولهم يا لفلان وبعض هذه الأحاديث يخرج الداعي بدعوة الجاهلية عن الإسلام كقوله عليه السلام «ليس منا من دعا بدعوة الجاهلية» وسبب ذلك أن هذه العصبيات الجزئية تضعف من قوة المجموع الذي هو ناصر للدعوة ومؤيد لها وقاهر لمن وقف في سبيلها وكانت نتيجة ذلك أن تآخى العدناني والقحطاني والمضري والربعي والقيسي والكناني ـ بعد أن كانوا أوزاعاً يكيد بعضهم لبعض وتتفانى قوتهم جميعاً أمام الأمم التي تحيط بهم وبذلك تكونت الأمة العربية. الدين كونها وهي نصرته حتى صار أحدهما مرادفاً للآخر في نظر الأمم التي غالبها العرب على أمرها.

صارت الأمة العربية على ذلك في صدر دولة الخلفاء الراشدين فصارعوا الفرس والروم وأجلوهم عن أعز أملاكهم واستولوا عليها تؤيدهم تلك الوحدة التي أنالها الدين قوة لا تقهر.

وكانوا مع هذه العصبية يرون لمن دخل في دينهم من الأمم الأخرى ما لهم من الحقوق وعليهم ما على العرب من الواجبات إلا أنهم لا يدلون إليهم بالمناصب الرئيسية كولاية الولايات وقيادة الجنود وهذا أمر طبيعي لا تمكن مقاومته.

ولما حصلت الفرقة بين علي ومعاوية لم تكن فرقة عناصر فقد كان مع كل من الرجلين رؤساء وأجناد. من جميع القبائل العربية اليمانيون هنا وهناك والنزاريون هنا وهناك وإنما كانت فرقة أثارها الدين في صدور قوم والتنافس في الدنيا في صدور آخرين وقد أدى اختصاص كل من الخصمين العظيمين بمكان أن انجلت الحرب على خلاف وتباغض مركزيين بين الأمة العربية فإن عرب الشام أبغضت عرب العراق وعرب العراق أبغضت أهل الشام ونطق بذلك بعض شعرائهم وذلك ناتج من كراهة أهل العراق لمعاوية وكراهة أهل الشام لعلي وقد أضعف ذلك كثيراً من قوة العصبية العربية.

انتقل الأمر إلى بني أمية وتولاه منهم معاوية بن أبي سفيان شيخ بني عبد مناف فدانت له الأمة وألقت بأيديها إلا أن عرق العصبية الجزئية قد شرع ينبض بعد أن كاد الإسلام يقضي عليه

وظهر على ألسنة الشعراء كلمات الفخر بما لقبائلهم من السابقة وحسن الأثر وقد اتضح ذلك وضوحاً جلياً بعد انتهاء البيت السفياني وعودة الانقسام أيام قام مروان بن الحكم منازعاً قرنه العائذ بالبيت وهو عبد الله بن الزبير فقد قام بمساعدة مروان عرب اليمن من كلب وغسان والسكاسك وناوأته قيس من عدنان فكان النصر لمروان واليمانية وأسرفوا في قتل قيس فتأثرت بذلك أنفسها تأثرا تمكن منها حتى قال في ذلك شيخ قيس وزعيمها زفر بن الحارث الكلابي كلمته التي أولها:

أريني سلاحي لا أبا لك إنني ... أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا

وفيها:

فلا تحبوني إن تغيبت غافلاً ... ولا تفرحوا إن جئتكم بلقائيا

فقد ينبت المرعى على دمن الثرى ... وتبقى حزازات النفوس كما هيا

وفيها:

فلا صلح حتى تشحط الخيل بالقنا ... وتثأر من نسوان كلب نسائيا

اجتمع شيخان من شيوخ قيس وهما زفر بن الحارث وعمير بن الحباب السلمي بقرقيسيا وصارا يطلبان كلباً واليمانية بمن قتلوا من قيس ثم نزل عمير بنواحي الجزيرة مجاوراً لتغلب ومعه عدد عظيم من قيس فأدى هذا الجوار إلى نزاع بين قيس وتغلب تبعته حروب حتى كتب زفر إلى عمير يقول له:

ألا من مبلغ عني عميراً ... رسالة ناصح وعليه زاري

أتترك حي ذي يمن وكلباً ... وتجعل حد نابك في نزار

كمعتمد على إحدى يديه ... فخانته بوهن وانكسار

وقتل في بعض الأيام عمير بن الحباب.

وقد نطق شيطان التفريق على ألسنة الشعراء المتباينين في الأنساب والمتقاربين بما يهيج الحزازات الكامنة لا يبالون ما يخرج من أفواههم ولا يدرون قيمة ما تؤثر به كلماتهم فكل ما أصلحه العقلاء أفسده هؤلاء وقد كان الأخطل التغلبي من شعراء تغلب ذوي الصوت المسموع فلما صالح زفر بن الحارث عبد الملك بن مروان وجاء بقومه فبايعوا قال الأخطل من كلمة لهم:

بني أمية قد ناضلت دونكم ... أبناء قوم هم آووا وهم نصروا

وقيس عيلان حتى أقبلوا رقصاً ... فبايعوا لك قسراً بعد ما قهروا

ضجوا من الحرب إذ عضت غواربهم ... وقيس عيلان من أخلاقها الضجر

وقال مرة بمحضر عبد الملك وعنده الجحاف بن حكيم السلمي القيسي:

ألا سائل الجحاف هل هو ثائر بقتلى أصيبت من سليم وعامر
أجحاف إن تصطك يوماً فتصطدم عليك أواذي البحور الزواخر
تكن مثل أقذاء الحباب الذي جرى به الماء أو جارى الرياح الصراصر
لقد حان كل الحين من رام شاعراً لدى السورة العليا على كل شاعر
يصول بمجر ليس يحصى عديده ويسدر منه ساجياً كل ناظر

فأجابه الجحاف على البديهة:

بل سوف نبكيهم بكل مهند وننعي عميراً بالرماح الشواجر

وسار الجحاف بعقب هذه الكلمة إلى تغلب فأوقع بها وقعة شديدة.

وقد قال هذا الشيطان الخبيث في تلك الموقعة بعد أن أثار غبارها:

لقد أوقع الجحاف بالبشر وقعة إلى اللّه منها المشتكى والمعول
فسائل بني مروان ما بال ذمة وحبل ضعيف لا يزال يوصل

وقال الجحاف:

أيا مالك هل لمتني أو حضضتني على القتل أم هل لامني كل لائم
ألم أفنكم قتلاً وأجدع أنوفكم بفتيان قيس والسيوف الصوارم
بكل فتى ينعى عميراً بسيفه إذا اعتصمت أيمانهم بالقوائم

حييت هذه العصبيات الجزئية ولم تجد من الخلفاء من يقطع طريق نموها وكأن ا لاة بالأمصار قد مسهم طائف من شيطان هذه الجاهلية فكان الوالي اليماني يحدب على قومه ويعطف عليهم وينصرهم ويوليهم النواحي وكذلك كان الربعي والقيسي والتميمي وكان يظهر ذلك واضحاً في الولايات البعيدة عن مركز الخلافة كخراسان ولا يخفى أن الدولة الأموية كانت ترتكز على العصبية العربية لأنها دولة عربية محضة فحياة ذلك النوع من العصبية مضعف للأمة وللدولة التي ترتكز عليها. وكان من الأمم التي ملكها العرب وذلت لهم الأمة الفارسية وهي أمة ذات تاريخ قديم يهمها أن تحيي ما اندرس من تاريخها. رأت نفسها مستضعفة عن مناوأة العرب والخروج من نير حكمها بوحدة عنصرية لأن كثيراً من الفرس كانوا قد دانوا للإسلام فمن الصعب تكوين قوة منهم تضاد العرب أو الإسلام فاتجه فكر قادة الأمة إلى صدمة العرب باسم الإسلام وكان بنو العباس إذ ذاك قد وجدت عندهم فكرة السعي لاسترداد حقهم من بني أمية فرأوا من مصلحتهم الاعتماد على الفرس في مساجلة بني عمهم من بني أمية وإنما لم يجعلوا عمدتهم على العرب لأمرين الأول أنه يصعب أن تروج بين جمهور العرب فكرة الخلاص من حكم بني أمية لأن العرب

لم يمسوا بأذى من جانب تلك الدولة بل كانت في الحقيقة دولتهم وبها عزهم والثاني أن شعب العرب قد انصدع باستعار نار العصبية الجزئية بين قبائلهم فكان اليمانيون في جانب والربعيون في جانب والمضريون في جانب. وأما الفرس فمن السهل إثارة عواطفهم إما بحكم العصبية العنصرية وإما بحكم الإسلام ورد الخلافة إلى نصابها من آل بيت محمد ﷺ وتأثير الأول في الخاصة من أبناء الأمة الفارسية وتأثير الثاني في العامة.

قامت الدولة العباسية وليس لها عصبية عنصرية تشد أزرها وتحمي بيضتها وإنما عصبيتها هؤلاء الموالي المصطنعون وعصبية الولاء أو الحلف قد تقوم مقام عصبية القرابة لولا ما يكدرها من ميل هؤلاء الموالي إلى استرجاع ما كان لآبائهم من المجد الذي يتوارثون ذكره. وقد وجد من هؤلاء الموالي في بدء الدولة جماعة لهم قدم ثابتة في الفارسية وفي الإسلام جعلهم العباسيون في مقدمة من يعتمدون عليه.

لم يترك العباسيون في مبدأ أمرهم عصبية العرب ولم يهملوا شأنها بل استعانوا بها لتكون لهم ملجأ إذ رأوا من الموالي نكوباً عن جادة نصرتهم وميلاً إلى الاستئثار بالسلطان دونهم فاصطنعوا كثيراً من رجال العرب وحماتهم من ربيعة واليمن ومضر إلا أنهم لم يلتفتوا إلى إزالة ما بين هذه القبائل من أسباب العداء والنفرة بل بالعكس وجد منهم ما يدل على الميل على إنماء هذه الحمية ليستعينوا بفريق على الآخر.

لذلك كله يمكن أن نقول إنه لم يكن للدولة العباسية في بدء حياتها عصبية قومية متحدة الأوصال وثيقة العرى وإنما كان الإسلام هو الذي يجمع بين تلك القوى والدين وإن كان جامعاً قوياً لكنه إن لم يكن مدعماً بعصبية قومية متحدة يضعف عمله واعتبر هذا بما قدمناه لك عن رسول الله ﷺ فقد كان مما اعتبره أساساً لقوته ومنبعاً لحياته إماتة العصبية الجزئية وسد الباب دون ذكرها والتلفظ بها.

كان بنو العباس يسندون أمر وزارتهم إلى رجل يختارونه من الموالي ويجعلون قيادة جنودهم إلى موال وإلى عرب ولكنهم كانوا دائماً تحت تأثير الظنون والريب التي تحوم حول عقولهم من استبداد الموالي بالسلطان فمتى شموا من وزير أو قائد من الموالي الخراسانيين رائحة من ذلك عاجلوه وانظر ما فعله المنصور بقائد الدولة العباسية الأكبر أبي مسلم الخراساني وزيره الأول ولأبي مسلم ما له من السابقة وحسن الأثر في إحياء الدولة ولكن ذلك لم ينفعه أمام ريب أبي جعفر وغيرته على ملكه أن يشاركه فيه أحد ولا يمكن أن نبرىء أبا مسلم من قصد تحويل السلطان إلى قومه وليس بنو العباس في نظره إلا واسطة لذلك فهو إذا عز مراده معهم يتحول بدون إبطاء إلى بني عمهم من آل علي. ولما قتل أبو مسلم قام بالثأر له قائد فارسي على دين قومه من

الوثنية سنباذ وجمع لذلك جموعاً عظيمة وكاد يزلزل بلاد خراسان لولا أن غولب بالعصبية العربية فإن أبا جعفر أعد له جمهور بن مرار العجلي وهو من رجال ربيعة فكسر قوته ويقال إنه قتل من قومه في الموقعة نحواً من ستين ألفاً: وقام يطلب بثأره أيضاً الراوندية في الهاشمية نفسها فعوجلوا والذي كان الفارس المعلم في يومهم قائد عظيم أيضاً من قواد ربيعة وهو معن بن زائدة الشيباني.

والخلاصة أن الدولة العباسية ابتدأت على عصبية يتحد دينها وتختلف عناصرها ولبعض هذه العناصر أغراض لا تتفق مع سيادة الدولة وعظم شأنها ونفوذ خلفائها وهذه العناصر هي العنصر العربي وهو منشق قد كاد ينسى العصبية القومية الكلية وصرع بتأثير العصبية الجزئية والثاني عنصر الموالي وأهمهم أهل خراسان ولم يكن بين الفريقين التئام حقيقي لاختلاف الغرض الذي يرمي إليه كل منهما.

واقتصار العباسيين على وزراء من العنصر الآخر وهو الموالي كان منتجاً بطبيعته غلبة العنصر الذي هم منه ونيلهم حظاً في الدولة لم يتمتع به مناظروهم من العرب فقد اشتهر من الموالي عدد عظيم في الصدر الأول تمتعوا بالنفوذ والسلطان ونالوا من الألقاب أعلاها سوى لقب الخلافة وانظر إلى بيت خالد البرمكي وما وصل إليه يحيى بن خالد وأولاده فقد توسع الناس حتى أطلقوا عليهم ألفاظ الملوك في مخاطباتهم وفي القصائد التي مدحوهم بها ووردت إليهم خزائن الأرض وجبايات الأموال وتزلف إليهم الناس من كل صنف بغية القربى عندهم وأثر عنهم لدى الرشيد ميلهم وخاصة جعفراً منهم كلمات تدل على أنهم يريدون التحول إلى خراسان ونزع الخلافة من آل عباس وتحويلها إلى آل علي كما اتهم بذلك قبله أول وزير من الموالي وهو خالد بن سلمة الخلال ومع هذه التهمة السياسية كانت تتردد كلمات تدل على الغمز عليهم في دينهم ونسبة الزندقة إليهم إلى غير ذلك مما يثير الظنون التي لا بد منها في دولة لا تعتمد على عصبية قومية.

ولا مراء في أنه كان لبعض هذه الأسرة غرض من حمل الرشيد على البيعة لولده المأمون بولاية العهد بعد البيعة لأخيه الأمين وكان الداعي إليها هو جعفر بن يحيى ابن خالد البرمكي وكان الذي ظنه الرشيد وهجس في نفسه أن البرامكة سوف يحرشون بين الأخوين ليفرقوا بينهما حتى يحارب أحدهما الآخر وينتفعون هم بنتيجة ذلك وهذا سبب من الأسباب الكثيرة التي منشؤها تمكن الريبة من مواليهم وحذرهم منهم ولذلك لم نر وزيراً عباسياً تمكن من حياة هادئة ذات ختام هادىء بل كانوا كلهم عرضة لهذه النكبات من ضياع الأموال واغتصاب النفوس ولا يمكن أن يكون سبب ذلك المال وحده بل إن المنازع السياسية وميل الموالي إلى استرداد عز الآباء كان له دخل كبير.

انتهت حياة الرشيد والمغالبة شديدة بين العنصرين الكبيرين اللذين هما دعامة الدولة يلجأ الخلفاء إلى أحدهما كلما رابهم من الآخر شيء إلا أنه قلما نسب إلى المصطفين من العرب فكرة خيانة الدولة وإرادة تحويلها عن آل العباس أو استهانة بوعد أو غدر بمن ائتمنهم وإنما كانت العيوب التي تسند إلى بعضهم وتدفع الخلفاء إلى عقوبتهم هي التقصير في أعمالهم وعدم أخذ الحيطة لها.

جاءت الوقائع بين الأمين والمأمون فكان من نتيجتها ازدياد قوة العنصر الخراساني لأن قوة المأمون ارتكزت عليه وظهر البيت الطاهري وهو أول بيت من الموالي منح خراسان على طريقة الاستقلال: والذي كان يزيد في قوة هذه العناصر أن المأمون وأخاه المعتصم كانا يميلان إلى الاستكثار من شبان الأتراك الذين كانوا يفدون على بغداد بكثرة يقدمهم ملوك ما وراء النهر وآل طاهر ومن هؤلاء الشبان من كان يشترى بالمال ومنهم من كان ذا بيت عريق في قومه فقدم بغداد ليستزيد عزاً بحلف هذه الدولة الكبيرة وولائها ولم تزل هذه الوفود تتوارد تواردا مطرداً حتى كان زمن المعتصم وقد تألفت منهم جيوش ظن الخليفة أنه يعتمد عليها في إقامة دولته ويستغني عن العرب وعصبية العرب وعن أبناء خراسان أيضاً أما العرب فلأمر ما كان هو وأخوه قليل الاعتماد عليهم ويظهر أن ذلك كان للاختلاف الشديد بين قبائلهم وأما الأبناء أو الموالي الخراسانيون فقد كثرت منهم الدالة على الخلفاء وخرج كثير منهم عن طاعتهم لذلك خلقت فكرة اصطناع هؤلاء الموالي الأتراك ظناً من الخلفاء أنهم ليس لهم آمال يريدون تحقيقها وأن الخلفاء متى اصطفوهم أمكنهم الاعتماد عليهم والاستغناء عمن عداهم لشجاعتهم وقوة أجسامهم وهذا خطأ غريب ربما كانت الدولة العباسية أول من وقع فيه وهو أن تعتمد دولة من عنصر على عنصر آخر في تأييد قوتها مع أن هذا العنصر يباينها في الأخلاق وفي العادات ويذكر وطنه الذي ينتمي إليه ولا ينساه إن هؤلاء الأتراك الذين اصطنعوا لم ينسوا لغتهم ولا بلادهم فمن البديهي أن يكون صغوهم إليها وميلهم لها وقد كان فيهم من هو ذو بيت عريق في قومه يميل إلى أن يكون كما كانوا من العز والاستئثار بالنفوذ كما كان الأفشين حيدر بن كاوس فقد كان أبوه ملكاً لأشروسنة وكان هو معظماً في قومه حتى كانوا فيما يخاطبونه يدعونه بالله الآلهة.

زرع المعتصم وأخوه هذا العنصر الجديد في الدولة وما دريا أنهما بعملهما هذا قد سلما عز الخلافة إلى غلمان الأتراك يتصرفون فيها إشارة رؤسائهم الذين منحهم المعتصم حق قيادة الدولة ولو كان هؤلاء الرؤساء متحدي الأغراض يسعون لغاية واحدة لكانت المصيبة أعظم ولكن كانوا على غير ذلك حتى إن الأفشين لما علم عنه أنه يعد العدة للرحيل إلى المشرق حتى يستولي على خراسان وما وراءها من بلاد ما وراء النهر ويؤسس هنالك مملكة تركية عظيمة كان الذين وشوا به

من الأتراك الذين لا يرون لهم أن يستأثر الأفشين بهذا الملك العظيم.

كان في حياة هذا العنصر الجديد ضعف العنصر العربي ضعفاً عظيماً فتفرق قبائل وعصائب وعاد الكثير منها إلى موطنها في القفر والصحراء والذين بالمدن لم تبق لهم عصبيات يستندون في حياتهم إليها وكذلك ضعف الموالي الخراسانيون لضعف ثقة الخلفاء فاختل التوازن بين عناصر الدولة ووجد غلمان الأتراك أنفسهم منفردين بالملك مستأثرين به. وليس أمام الخلفاء إلا هم فاستحكم نفوذهم وصاروا هم الآمرين حتى امتدت أيديهم إلى حياة الخلفاء وإلى أموالهم وإلى كل شيء عندهم وخضع الخلفاء لهذه القوة التي لم يجدوا أمامهم ما يردها من العرب ولا من الأبناء العنصر الذي كان أول الخلافة شراً وأما هذا فهو نهاية الشرور.

كان تغلب هذا العنصر ولعبه برقاب الخلفاء من بني العباس ذا نتائج سيئة فإنه أضعف صولة الخلفاء وقلل من قيمة أقوالهم وأوامرهم وأما في الأطراف فقد رأى الولاة أن قد آن لهم أن يستقلوا بما تحت أيديهم لأنهم ليسوا أقل من أتراك بغداد الذين استأثروا بالنفوذ في عاصمة الخلافة نفسها ولم يمض إلا قليل من الوقت حتى صارت الدولة العباسية (في منتصف القرن الثالث) محاطة بدول مستقلة في الإدارة عن سلطان الخلفاء وتدفع عنها شر اعتراض الجمهور وغضب الخلفاء بإعلان الدعوة لهم على المنابر وكتابة أسمائهم (أحياناً) على السكة وإرسال شيء من المال والهدايا إلى بغداد قد حصل ذلك في المغرب والمشرق والجنوب والشمال في آن واحد ولا قبل للدولة بإرسال الجنود لإعادة الحكم العباسي الفعلي إلى تلك الولايات لأن غلمان الأتراك قلما يهمهم ذلك ما داموا آخذين بحلاقيم الخلفاء في حاضرة الدولة فاضطر بنو العباس إلى الرضا بما بذل لهم.

صار المتغلبون يقتتلون وينتزع بعضهم الولاية من بعض ولا عمل للخلفاء إلا أن يصدروا منشور الولاية للغالب الظافر وقد حاول بعض هؤلاء المتغلبين وهو يعقوب ابن الليث الصفار أن يستولي على قلب الخلافة ويزيل عنه المتغلبين عليها من الأتراك لولا ما ظهر من تشدد أبي طلحة الموفق الذي كان ولي العهد وصاحب السلطان في عهد المعتمد على اللّه والذي أحيا فيه تلك القوة أن العنصر المستولي على الدولة وهو عنصر الأتراك نفس بعضه على بعض ما أتيح له من الغلب والسلطان والمال فضعف أمرهم وطلب كثير منهم أن يتولى قيادة الجيش أحد أفراد البيت المالك وكان الموفق أقرب إليهم فانتخب لقيادة الجيش فنجح في إحياء شيء من قوة الخلافة إلا أن الداء عضال لا يمكن حسمه وذلك الداء هو فقد الدولة للعصبية القومية التي يمكن الاعتماد عليها فكانت هذه القوة كالبرق الخلب لا يلبث أن يزول ويضمحل أمره. فإن الضعف عاد بعد الموفق وابنه المعتضد إلى أشد مما كان كنكسة المريض عسير برؤها شديد أثرها واستمرت الخلافة الاسمية لبني العباس والسلطان الحقيقي لما بقي بأيديهم من البلاد للأتراك إلى أن تحرك عنصر جديد من بلاد الديلم يقوده ثلاثة إخوة من بيت عريق في الشرف القومي وهم أولاد بويه فانتزعوا السلطان من

الأتراك ببغداد وجعلوا ملك العراق لواحد منهم يتصرف فيه والخليفة يأتمر بأمره ولم يكن هؤلاء القوم يدينون بإمامة بني العباس ومع ذلك فقد أبقوا عليهم لأمرين: **الأول**: مرضاة الجمهور البغدادي فقد كان معظمه يدين بإمامتهم ويفضلهم على آل علي. **والثاني**: أن الخليفة العباسي يسهل خلعه متى أحسوا به يحاول خلع النير عن عنقه لأنه لا مانع دينياً يمنعهم من ذلك. أما الخليفة العلوي فإنه يصعب عليهم أن ينالوا منه شيئاً وربما نال منهم بقوته الدينية هكذا لعبت السياسة بالعقيدة فأضاعت أثرها ومع ما ناله الديلم من هذا السلطان فإنهم لم يهملوا العنصر التركي الذي كان كثيراً بحاضرة الخلافة بل اعتمدوا عليه حتى كان بعض الملوك من آل بويه يفضل الأتراك على الديلم.

وفي أوائل المائة الخامسة ظهر بالمشرق عنصر جديد دخل في الإسلام حديثاً وفارق وطنه متجهاً إلى بلاد المغرب وهو عنصر الغز من أتراك ما وراء سيحون على رأسه بيت عظيم الفخار ممتاز عندهم بالشرف والمجد وهو البيت السلجوقي قاد هذا البيت جماعة الغز إلى بلاد خراسان ولم تقدر الدولة التي كانت بأطراف المملكة الإسلامية على صده فلم يزل حتى امتلك بغداد وأزال عنها ملوك آل بويه وكان هذا العمل على رغبة الخلفاء من بني العباس لأنهم كانوا ميالين إلى إزالة الدولة الديلمية التي كانت غالية في تشيعها والإدلاء بالأموال إلى دولة أخرى تدين بإمامتهم واحترامهم وقد استمر العراق تحت سلطان آل سلجوق حتى دب إليهم ما دب إلى من قبلهم من داء الخلف والانقسام فكان ذلك مشجعاً بني العباس إلى اليقظة من هذا السبات الطويل وامتلاك أعنة الخيل والتصرف بما تحت يدهم من البلاد العراقية ولم يكن لهم ما يعتمدون عليه من العصبية إلا بقايا مواليهم من المماليك فأعادوا في العصر المتأخر ما كان عليه سلفهم في منتصف القرن الثالث.

وقد استمر الحال على ذلك حتى خرج سيل المغول الجارف وأزال الدولة العباسية من المشرق كله.

من ذلك يفهم أن أساس الاضطراب كان سائراً مع هذه الدولة من بدء نشأتها وهو فقد العصبية القومية التي يعتمد عليها إلا أن توازن القوى في الأول حفظ للخلفاء نفوذهم فلما اختل هذا التوازن اختل معه هذا النفوذ. والمقام الديني هو الذي ظل حافظاً لهذه الدولة من الفناء مع هذا الضعف المتوالي.

٢ ـ منافسة العلويين

لا مراء في أن كون الخليفة من آل بيت النبوة أحب إلى قلوب الجمهور من الأمم الإسلامية

وهم لهم أطوع، لأن المؤثر الديني يكون مستحكماً ولذلك صادفت الدعوة إلى أهل البيت نجاحاً عظيماً في صدر المائة الثانية من الهجرة.

وكان أهل البيت الذين لا يعدوهم هذا الأمر من بيتين اثنين كل منهما يسابق الآخر في القرب من رسول اللّه ﷺ فأما أحدهما فهو البيت العباسي الذي ينتمي إلى العباس بن عبد المطلب عم رسول اللّه ﷺ وعاصبه الوحيد عند وفاته وأما الثاني فهو البيت العلوي الذي ينتمي إلى علي بن أبي طالب ابن عم رسول اللّه ﷺ وزوج ابنته فاطمة.

وقد حاول البيت الثاني أن ينال الخلافة قبل العباسيين في عهد بني أمية ففشل قام الحسين بن علي مطالباً بها فقتل دونها وقام حفيده زيد بن علي بن الحسين فقتل دونها بالكوفة وقام على أثره ابنه يحيى بن زيد فكانت نتيجته كأبيه ـ ذلك مع ميل الجمهور العراقي لهم وعطفه عليهم.

أما العباسيون فقد أحكموا أمرهم واستعانوا بأهل خراسان في إحياء بيتهم وكانت الدعوة إليهم مبهمة في أول الأمر لا يزيد الداعي في دعوته على أنه يدعو للرضا من آل محمد ﷺ إلا أن الدعاة والنقباء يعرفون صاحب الدعوة باسمه وشخصه وكانت النتيجة تمام النجاح وساعدهم ضعف عصبية خصومهم، فرقوا عرش الخلافة وقضوا على بني أمية.

حرك ذلك من غيرة بني عمهم منهم وحسدهم لهم ومن المعلوم أن جمهوراً كبيراً كان يؤثر العلويين ويتولاهم دون العباسيين وكان بنو العباس على علم من ذلك يرون أن كل فتق جاءهم من غير ناحية العلويين فهو سهل الرتق والتلافي أما هؤلاء فهم الخصم الذي يخاف جانبه لأنهم يشاركونهم في السبب الذي قامت عليه خلافتهم وهو القرب من رسول اللّه ﷺ، وربما كان لهم في نظر الجمهور الشيعي ما يفضلهم على العباسيين وهو ولادة فاطمة بنت رسول اللّه ﷺ فإذا دعوا إلى أنفسهم أحدثوا في العصبية التي قامت عليها الدولة انقساماً ولا يدرى حينئذ لمن تكون الغلبة.

لما كانت المدينة النبوية هي مقام أبناء علي من بني حسن وحسين راقبهم العباسيون سراً وإذا كان موسم الحج جمعهم الخليفة وهو أبو العباس السفاح فأغدق عليهم العطايا ومنحهم الهبات يريد بذلك لفت أنظارهم عن الدرجة العليا وهي درجة الخلافة ويريهم أن خلافة بني عمهم تحدب عليهم وتنسيهم أيام الشدائد التي مرت عليهم في عهد أسلافهم من بني أمية، إلا أن ذلك المعروف الجميل لم يكن إلا معززاً لدواعي الغيرة والحسد وازدياد الشعور بضياع ذلك الحق الذي هم أولى به وإذا كان غصب الأجنبي الحق مؤلماً للنفس فرؤيته عند القريب أشد إيلاماً ولا سيما إذا ظن من ضاع حقه أنه يجد من يساعدونه على نيله.

كان أول صدع صدعت به الدولة العباسية خروج محمد بن عبد اللّه المعروف بالنفس الزكية بالمدينة وكان كثير من أهل خراسان ينتظر قيامه ولولا ما ظهر من شجاعة أبي جفر المنصور ومضاء عزيمته وأخذه بالاحتياط في مصادرة موارده لزلزلت جوانب الخلافة العباسية ولكن تلك الصفات من المنصور قضت على محمد بن عبد اللّه وعلى أخيه إبراهيم الذي ثار بالبصرة.

وكانت نتيجة ذلك أن اشتدت ريبة العباسيين من بني عمهم فضيقوا عليهم وشددوا المراقبة على المعروفين منهم وأرهقوا الجند في استطلاع أخبارهم فتباعد الأمر واشتدت الجفوة ورأى بنو العباس أنفسهم مجبورين على نبذ فكرة التشيع التي أسسوا عليها دولتهم وصاروا يجنحون إلى تقديم الشيخين أبي بكر وعمر على علي بن أبي طالب بعد أن كان دعاتهم يقدمونه عليهما واشتد تطلع العلويين إلى قلب الدولة العباسية ليخرجوا من حرج الضيق الذي نالهم وساروا كالطائر المحبوس في قفصه يحاول التخلص منه على غير هدى كما فعل الحسين بن علي الذي ثار بمكة في مدة الهادي (سنة ١٦٩) فحيل بينه وبين مراده وقتل بفخ بالقرب من مكة.

أفلت من تلك الموقعة إدريس بن عبد اللّه وأخوه يحيى فاتجه الأول غربا ماراً بمصر ومخترقاً شمال إفريقية حتى أتى المغرب الأقصى فحدب عليه من به من البرابرة وبايعوه بالخلافة وأسس هناك دولة الأدارسة في طرف الدولة من الغرب واتجه الثاني نحو المشرق وذهب إلى نواحي الديلم إلا أن قربه من مركز الخلافة حتم عليه الفشل. وقد أظهرت حوادث هذين الأخوين أن من موالي العباسيين وصنائعهم من هواه مع العلويين كواضح مولى بني العباس الذي كان على بريد مصر فإنه هو الذي سهل لإدريس المرور من أرض مصر مع معرفته به وجعفر بن يحيى البرمكي الذي سهل ليحيى بن عبد اللّه طريق الإفلات من يد الرشيد فكان ذلك مما دعا الرشيد إلى أن يربى على من كان قبله في النفور من العلويين وكراهتهم والتشديد في عقوبة من يتهم بالميل إليهم وشدة التضييق على من بقي بالمدينة منهم وجاء بموسى الكاظم بن جعفر الصادق إلى بغداد ليقيم تحت نظره.

ظهر الجرح بجنب الدولة العباسية واجترأت أمة من الأمم الإسلامية وهي أمة البربر بالمغرب الأقصى أن تخرج عن طاعتهم معتقدة أنها نالت حظاً أعلى من حظ سائر الأمم الإسلامية لأنها ظفرت برجل من آل البيت النبوي ومن أبناء ابنته واضطر الرشيد أن يزرع بإفريقية دولة الأغالبة ومقرها القيروان كما يفعل من رأى حريقاً بجزء من داره يجتهد أن يفصل بين ما تناولته النار وبين سائر البيت وهذا ما فعله الرشيد.

جاء المأمون فرأى خطر العلويين محدقاً بالدولة ماذا رأى: رأى كثيراً من أبناء الدعوة ورجال الدين يميلون إلى العلويين ويكرهون ما ينالهم من الشر فأراد أن يتقرب إليهم ببعض

ما يرغبون فيكسر من حدتهم ويضعف من قوتهم فاختار منهم علي الرضا الذي يتولاه أكثر شيعة آل علي وولاه عهده ويظن أنه فعل ذلك إرضاء للحسن بن سهل وزيره الأكبر ومدبر أمره وصاحب الفضل الأعظم في سوق الخلافة إليه وإخراجها عن أخيه الأمين وكان الحسن يتشيع وينسب إلى الزندقة أيضاً ولكنه رأى أن النتيجة لم تكن على ما يرغب فإنه وإن أرضى العلويين بهذا العهد قد أغضب العباسيين أصحاب الدعوة فثاروا ضده ببغداد وخلعوه واختاروا من بينهم عمه إبراهيم بن المهدي فلم يكن أمامه ما يربأ به هذا الصدع إلا أن احتال في التخلص من الحسن بن سهل بأن وضع له قوماً تناولوه بأسيافهم ثم مات بعقب ذلك علي الرضا فنسب قوم ذلك إلى المأمون أيضاً والقرائن تساعدهم ولكن ليس عندنا من الأدلة ما يقوي هذه التهمة.

عادت الأمور بعد موت هذين إلى مجراها ورجع أهل بغداد إلى المأمون وانحرفوا عن عمه. ظل المأمون بعد ذلك على ولاء العلويين والتشيع لعلي بن أبي طالب وأعلن ذلك في كلامه وفي كتبه حتى إذا رأى منهم الميل إلى الخروج والثورة شرع يعاملهم بمثل ما كان يعاملهم به أبوه بعد ثورة اليمن فأمر ألا يدخلوا عليه واضطر لأن يجاري أباه في الاحتياط فأسس دولة باليمن تشبه دولة الأغالبة بإفريقية وهي الدولة الزيادية والغرض من الدولتين واحد.

واتبعوا طريقة الحجر على أئمة الشيعة وأمرهم إياهم بالإقامة بمرأى منهم في بغداد أو في سامرا بعد اختطاطها.

ولم يكن الخلفاء معهم على سيرة واحدة فقد كان المتوكل على اللّه بن المعتصم على غير ما كان عليه أبوه وعمه من الإحسان إلى العلويين والتصريح بتفضيل علي على غيره من شيوخ الصحابة وكان في ذلك على سيرة جده الرشيد إلا أنه زاد عليه فقد كان يصرح في مجالسه بانتقاص علي بن أبي طالب ويبيح للمجان من جلسائه الهزء والسخرية به ويكره كل من عرف بالتشيع إلى العلويين ويؤذيهم في أنفسهم وأموالهم ويقدم الشعراء الذين يتطرفون في قصائدهم فينتقصون آل علي ويفيض عليهم بالهبات الوافرة. وهدم قبر الحسين بن علي ونهى الناس عن زيارته وشدد في ذلك تشديداً عظيماً فكان الناس من ذلك في هم وحزن حتى إن شاعره الكبير أبا عبادة البحتري لما مات وولي المنتصر وكان على غير طريقة أبيه مع العلويين مدحه بذلك فقال:

رددت المظالم واسترجعت ... يداك الحقوق لمن قد قهر
وآل أبي طالب بعد ما ... أذيع بربهم فاندعر
ونالت أدانيهم جفوة ... تكاد السماء لها تنفطر
وصلت وشوابك أرحامهم ... وقد أوشك الحبل أن ينبتر
فقربت من حفظهم ما نأى ... وصفيت من شربهم ما كدر

وأيـــن بكـــم عنهـــم واللقـــا ... ء لا عـــن تبـــاه ولا عـــن عفـــر
قـــرابتكـــم بـــل أشقـــاؤكـــم ... وإخـــوتكـــم دون هـــذا البشـــر
ومـــن هـــم وأنتـــم يـــدا نصـــرة ... وحـــدا حســـام قـــديـــم اثـــر
يشـــاد بتقـــديمكـــم فـــي الكتـــاب ... وتتلـــى فضـــائلكـــم فـــي الســـور
وإن عليـــاً لأولـــى بكـــم ... وأزكـــى يـــداً عنـــدكـــم مـــن عمـــر
وكـــان لـــه فضلـــه والحجـــو ... ل يـــوم التفـــاضـــل دون الغـــرر
بقيـــت إمـــام الهـــدى للهـــدى ... تجـــدد مـــن نهجـــه مـــا دثـــر

مع أن البحتري له في المتوكل المدح الجليلة والمراثي المؤثرة.

ثلم آل علي ثلمة أخرى في سياج الدولة من الجهة الشمالية الشرقية بتأسيس الحسن بن زيد دولته في الديلم ولم يفلح بنو العباس في القضاء عليه فاشتد الخرق عليهم من الشرق والغرب وفتحت العيون التي كانت تغضى حياء وتخاف تديناً.

رأى العلويون في النصف الثاني من القرن الثالث أن ينظموا صفوفهم ويمهدوا لقلب الدولة العباسية بالدعوة لها فسنوا لذلك نظاماً خاصاً عرف بنظام الدعوة ساروا في ذلك على أثر الدعوة العباسية إلا أنهم حلوها بشيء من المقدمات وبعثوا دعاتهم إلى جميع الأقاليم الإسلامية غرباً وشرقاً ولما تهيأ لهم الأمر أهبوا نار الثورة والاضطراب بشكل مريع على يد القرامطة فزلزلوا جوانب الدولة وحالوا بينها وبين عمل أي شيء يمكنها من القضاء عليهم وفعلوا في الإسلام ما لم يخطر ببال مسلم أن يقوم به مما قدمنا ذكره. ثم قام على أثرهم الفاطميون بإفريقية فاستولوا عليها وعلى الجزائر والمغرب الأقصى ثم مدوا سلطانهم على مصر وسوريا والحجاز واليمن وشواطىء الفرات وكادت نارهم تلفح وجه الدولة العباسية وقد حصل أن اتخذ أحد الثوار العراقيين هذه الدعوة ذريعة إلى التمكن من الأمر وخطب فعلاً للعلويين على منابر بغداد نحو سنة.

وكان العباسيون لما رأوا أنفسهم عاجزين عن دفع هذا العدو اللدود عنهم اشتغلوا بما لا يفيد من الطعن في نسب العلويين المصريين وكتبوا في بغداد محضراً وقع به العلماء والفقهاء وكبار بني هاشم وقالوا فيه إن نسب العبيديين بمصر غير صحيح وإنهم أدعياء ملعونون مع أنه نسب للشريف الرضي نقيب الطالبيين ببغداد قوله:

مـــا مقـــامـــي علـــى الهـــوان وعنـــدي ... مقـــول صـــارم وأنـــف حمـــي
وإبـــاء محلـــق بـــي عـــن الضيـــم ... كمـــا راغ طـــائـــر وحشـــي
أي عـــذر لـــه إلـــى المجـــد إن ذ ... ل غـــلام هـــم عمـــده المشـــرفـــي
ألبـــس الـــذل فـــي ديـــار الأعـــادي ... وبمصـــر الخليفـــة العلـــوي

مـــن أبـــوه ومـــولاه مـــولا ... ي إذا ضـــامنـــي البعيـــد القصـــي
لـــف عـــرقـــي بعـــرقـــه سيـــد النـــا ... س جميعـــاً محمـــد وعلـــي
إن ذلـــي بـــذلـــك الجـــو عـــز ... وأوامـــي بـــذلـــك النفـــع ري
قـــد يـــذل العـــزيـــز مـــا لـــم يشمـــر ... لانطـــلاق وقـــد يضـــام الأبـــي
إن شـــراً علـــي إمـــراع عـــزمـــي ... فـــي طـــلاب العـــلا وحظـــي بطـــي
ارتضـــي بـــالأذى ولـــم يقـــف العـــز ... م قصـــوراً ولـــم تعـــز المطـــي
كـــالـــذي يخبـــط الظـــلام وقـــد ... أقمـــر مـــن خلفـــه النهـــار المضـــي

ولما اشتهرت عنه عتب الخليفة القادر باللّه على والده فأنكرها ولم يثبتها في ديوانه وهي مشهورة عنه ومن طراز شعره وعلى الجملة فإن مثل هذه الأشياء لم تفدهم فائدة ما.

ومما زاد الأمر بلية أن بنى بويه الذين استولوا على بغداد في منتصف القرن الرابع كانوا شيعة فأباحوا للشيعة الظهور في بغداد بما يشتهون من العادات التي كانوا يفعلونها يوم عاشوراء فقد كانوا يجعلونه يوم حزن يخرج النساء فيه حاسرات نادبات لاطمات ينعين الحسين بن علي رضي اللّه عنه وغير ذلك من العادات وصار الناس يتقربون إلى السلطان بالتشيع.

وفي أوائل القرن السادس ظهرت فئة الباطنية بفارس وبالشام فأرهقوا الناس وأفسدوا الدول وتمكنوا من اغتيال بعض خلفاء بني العباس.

واستمر هذا النزاع السياسي بمصر حتى سقطت الدولة الفاطمية على يد صلاح الدين يوسف بن أيوب واستمر مع الباطنية بفارس والشام. واستمر مع أهل بغداد حتى ليقال إن السبب في هيج التتار وإغرائهم على أخذ بغداد هو حادثة اعتداء وقعت من أهل السنة على محلة الشيعة وهي الكرخ.

من ذلك ترى أن النزاع بين العباسيين وآل علي استمر من أول خليفة إلى آخر خليفة وكان ذلك سبباً من أسباب ضعف الدولة بعد ما تقدم ذكره من خلل العصبية التي كانت عمدة العباسيين.

ويمكن أن يعد هذا السبب من متممات السبب الأول.

٣ ـ ضعف قيمة العهود

الوفاء بالعهد خلق عربي حافظ عليه العرب في جاهليتهم وبذلوا دونه أموالهم وأنفسهم وأبناءهم عرف لهم ذلك من جاورهم من الأمم كالفرس والروم وحوادثهم في ذلك مأثورة قد حفظتها بطون الصحف ولسنا بصدد أن نقتصها. لما جاء الإسلام أيد هذا الخلق وأمر به أمراً حتماً

لا هوادة فيه. قال تعالى في سورة الإسراء ﴿وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً﴾ (١) وقال: ﴿وأوفوا بعهد اللّه إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم اللّه عليكم كفيلاً إن اللّه يعلم ما تفعلون﴾ (٢) إلى غير ذلك من الآيات القرآنية التي شددت في وجوب الوفاء بالعهد واعتبارها أساساً تقوم عليه الأمة الإسلامية وعلى ذلك سار الخلفاء الراشدون كما يعلم من استقراء تواريخهم وكذلك نحا بنو أمية هذا المنحى لأن العنصر العربي كانت له المكانة فيها بل يصح أن يقال إنها كانت دولة عربية محضة وقد اعتد الناس على عبد الملك بن مروان فعلته التي فعلها مع سعيد بن العاص حيث قتله بعد أن عاهده على تأمين حياته وقالوا إنها أول غدرة في الإسلام وسأل عبد الملك أحد كبار رعيته من شيوخ العرب عن رأيه فيما فعل مع سعيد فقال حسن لو قتلته وحييت فقال عبد الملك أو لست بحي فقال الشيخ العربي حياة من لا يوثق له بعهد ولا عقد. فانظر كيف عد العربي هذه الحياة كلا حياة ولم يصل إلى علمنا في هذه الدولة حوادث أخرى من هذا القبيل لأن الأمة كانت لها رقابة شديدة على خلفائها.

لما جاءت الدولة العباسية وقد ظهرت على أيدي عنصر غير عربي ظهر منها لأول نشأتها حوادث متكررة تدل على أنه ليس للعهود في نظر خلفائها قيمة فقد قتل المنصور في حياة السفاح ابن هبيرة بعد أن أمن أماناً لا شك ولا حيلة فيه وكان الذي أشار بقتله أبو مسلم الخراساني مشيد الدعوة العباسية وكانوا لا يحبون أن ينفذوا أمراً دون مشورته. ثم أعاد المنصور هذه الرواية نفسها مع أبي مسلم بعد أن أمنه ثم فعل مثل ذلك مع عمه عبد اللّه بن علي بعد أن أمنه وأعلن رضاه عنه ولذلك لما كاتب المنصور محمد بن عبد اللّه بن الحسن وقال إنه يعطيه الأمان أجابه محمد بقوله وأما أمانك الذي عرضت فأي الأمانات هو أأمان ابن هبيرة أم أمان أبي مسلم أم أمان عمك عبد اللّه بن علي والسلام وهذه كلمة شديدة الوقع سيئة التأثير لأنها وصمة عار كبيرة لمن هو قائم مقام رسول اللّه ﷺ في حراسة دينه وسياسة الأمة.

وهذا الذي حصل في صدر الدولة كان مجرئاً لمن أتى بعد ذلك أن يحاولوا التخلص مما تقضي به العهود إذا رأوها مخالفة لمصالحهم ولا سيما العهود التي تعقد لتولي الخلافة فإنهم جعلوها من الأشياء التي يسهل حلها وإن كان بعضهم يحاول أن يلبس باطله ثوب الحق. فعل ذلك المنصور مع عيسى بن موسى الذي عقد له السفاح الخلافة بعد المنصور فقدم عليه ابنه محمداً المهدي وهذا التقديم وإن كان قد تم بطلب عيسى ورضاه إلا أنا نعرف كيف توصل المنصور إلى الحصول على هذا الرضا من الإساءات المتكررة لعيسى والتهديد المتواصل حتى هم الرجل أن

(١) سورة: الإسراء، الآية: ٣٤.
(٢) سورة: النحل، الآية: ٩١.

يخلع طاعة المنصور ويفتن الأمة وفي رأيي أنه لو وجد نصراء لفعل وإن كان قد أثر عنه شعر يفيد أنه آثر مصلحة الأمة على مصلحة نفسه وهو قوله:

خيرت أمرين ضاع الحزم بينهما ... إما صغار وإما فتنة عمم
وقد هممت مراراً أن أساجلهم ... كأس المنية لولا اللّه والرحم

وفعل المهدي مثل ذلك معه فعزل عن العهد بمرة وقد ارتكب من الوسائل ما ارتكبوه.

وفعل الأمين ذلك مع أخيه المأمون فأدى ذلك إلى الفتنة الشعواء التي كانت بين (سنة ١٩٤) إلى (سنة ١٩٨) قاست الأمة في أثنائها مصاعب هائلة ولم يوجد منهم من هاب ذلك الفعل محافظة على العهود والمواثيق ومن البديهي أن أمثال هذه العهود ليست قاصرة على المتنازعين بل تتعداهم إلى القواد والأمراء فهؤلاء ينشقون أيضاً ويستسهلون الإقدام على فك تلك القيود التي حلفوا الأيمان الوثيقة على الوفاء بها.

كتب الرشيد أماناً ليحيى بن عبد اللّه وأكد فيه غاية التأكيد ولما ارتاب منه صار يبحث في الوجوه التي يبطل بها الأمان وجعل فقهاء وقته الواسطة في ذلك فمنهم من أبت عليه شيمته ودينه أن يسترسل في الدين مع الأهواء ومنهم من سارع إلى هوى الخليفة وصار يبدي الأوجه التي ينتقض بها الأمان.

كل هذا من العيوب التي شقت عصا البيت وتعدت إلى فرقة الأمة فأضعفت عصبية الدولة وآل الأمر بخلفائها إلى أن تكون قوتهم مستمدة من المتغلبين عليهم.

وقد بقيت أسباب أخرى ثانوية يمكن استنتاجها مما تقدم في التاريخ التفصيلي واللّه تعالى أعلم.

بعونه تعالى تم الكتاب

obeikandl.com